الفصل الثالث

علاقة العلم بالفلسفة الإسلامية(*)

تمهيد

إن العلاقة الوثيقة بين العلم والفلسفة الإسلامية بديهية لا يمكن إنكارها ولا تحتاج إلى برهان، فما كان للعلم أن يقيم حضارة بمعزل عن الفكر الذي يحتضنه ويغذيه، وما كان للفكر أن يزدهر ويرقى بعيدًا عن العلم الذي يدعمه ويكثر من ثماره. لكن البديهيات هي التي كثيرًا ما تتعرض من جانب الجاحدين لمحاولات الطمس والتشويه، وتتعرض من جانب المعايشين لها والمتفقين عليها لحالة من انقطاع الوعي بها والنسيان لمدلولاتها وغاياتها. ومهما يكن من أمر الخلاف حول مجالات الفلسفة الإسلامية وطبيعة المشكلات التي تشغلها والأهداف التي تسعى لتحقيقها، فإن علاقة العلم بالفكر الإسلامي عمومًا يجب - في رأينا - أن تحظى بالمزيد من اهتمام الباحثين لتأكيد أصالة الفكر العلمي الإسلامي من جهة، ولتجديد هذا الفكر حتى يكون قادرًا على استيعاب حركة العصر من جهة أخرى، خصوصًا بعد أن تدخل العلم في بناء الحياة المعاصرة بحيث لم يعد هناك أي نشاط إنساني إلا ويعتمد على العلوم وتقنياتها في تخطيطه وتطويره، والإسراع بإيقاع حركته.

وتهدف الدراسة الحالية إلى فهم أعمق لطبيعة العلاقة بين العلم والفلسفة، وتحليل أوضح للتحديات العلمية المعاصرة التي يواجهها الفكر الإسلامي في ضوء ما تنبيء به نتائج الأبحاث الجارية من ثورة علمية مرتقبة يتهاوى تحت معاولها أساس الكثير من النظريات العلمية والمذاهب الفلسفية السائدة، ويطرأ بسببها تحول كبير على وعي الإنسان وتصوره لنفسه وللعالم.

(*) جزء من دراسة منشورة في مجلة **منبر الحوار**، العدد (27)، بيروت، لبنان، 1993م.

طبيعة العلاقة بين العلم والفلسفة والدين

يحدثنا القرآن الكريم بأن العلم قرين الإنسان منذ خلقه الله تعالى ونفخ فيه من روحه، وأن الله سبحانه وتعالى قد امتن على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، وامتن عليهم بتكريم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعظيم شأنه، وشرفه على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة البقرة]. وقد جاء في التفسير أن الله تعالى علم آدم الأشياء، كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها. والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصه بالمعرفة التامة دونهم[1].

والإنسان يولد في هذه الأرض لا علم له بشيء من هذا الكون على الإطلاق، فيدعوه الإسلام إلى العلم ويحثه على اكتساب المعرفة والاستفادة من تطبيقاتها وتقنياتها، وسائله في ذلك نعمة الحس ونعمة العقل، وقبلهما توفيق الله وهدايته. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

لهذا لم يكن الإنسان في أي مرحلة من مراحل تاريخه بعيدًا عما يمكن اعتباره ممارسة لعملية التفكير واستخدامه في التغلب على مصاعب البيئة التي كان يعيش فيها. وبمرور الزمن استطاع الإنسان بالفطرة والخبرة أن يصل تدريجيًا إلى قدر من المعرفة العقلية أو العلمية أفاد منها في التمييز بين الموجودات ومحاولة السيطرة على ما يحيط به. فهو عندما اهتدى إلى بعض

(1) **مختصر تفسير ابن كثير**، ج1، ص 49 - 52.
- **صفوة التفاسير**، ج1، ص 34، ط1 (1981).

خواص في إيقاد النار من تطاير الشرر الذي يحدثه احتكاك الأحجار بقوة نجده قد استخدم هذه النار للدفء ولطهو الطعام ولإنارة الكهوف التي سكنها. وعندما رأى الحجارة الكبيرة تحدث أثرًا في الأجسام والأشياء عند ارتطامها بها أو سقوطها عليه نجده قد تعامل معها بجرها ونقلها ليتخذ منها أدوات يستخدمها في القطع والشق والثقب وصناعة الأسلحة البدائية التي يدافع بها عن نفسه.

ولا ريب أن هذا النوع من التفكير في تلك المرحلة البدائية كان ساذجًا وعفويًا ومشوبًا بالأوهام والخرافات، لكنه كان ضروريًا لمساعدة الإنسان على تفسير الظواهر التي يراها ويتعامل معها بعد أن لاحظ تجانس العالم الذي يعيش فيه واسترعى انتباهه تواتر الظواهر الطبيعية أمام عينيه. فكان مثلًا يرى أنه بحاجة إلى تفسير الحركة والحياة في الأشياء، وهداه خياله البدائي إلى أن يعزى الحركة إلى أرواح أو آلهة تجعل الشيء متحركًا، قياسًا على ما كان يراه في الأحلام من أشياء تتحرك حركات خارجة عن المألوف له في يقظته. ولذلك كان طبيعيًا أن تتعدد الآلهة بالنسبة للإنسان البدائي بتعدد ظواهر الطبيعة، إذ لم يكن قادرًا على أن يفرق بين الحركة والحياة، فكل ما هو متحرك أمام ناظريه، كالشمس والكواكب والرياح والمياه والصخور المتساقطة من أعلى الجبل، يعتبر في رأيه حيًا، وما دام حيًا فهو ذو نفس، والنفس لا تتلاشى أثناء النوم ولا بعد وفاة الجسد بدليل رؤية الحالم للموتى، فهي إذن من طبيعة علوية أو إلهية.

ومن هنا نشأ الدين الوثني في المجتمعات البدائية ليؤدي مهمة عقلية تتفق ومستوى تفكير الإنسان البدائي للإجابة على كل ما يخفى عليه فهمه من مظاهر الكون، وما يخرج على التجانس الذي اعتقده فيه، ونشأت بذلك التفسيرات الخرافية التي تعتمد على الخيال وحده في إعطاء الإنسان صورة معرفية عن الكون.

لكن الإنسان ما لبث أن تكونت لديه بعض المعارف والتصورات عن ظواهر الطبيعة المرتبطة بحياته وحاجياته، واستطاع أن يرقى إلى حد المعرفة الحقيقية، ففطن إلى عجز الأوثان عن تقديم حلول مقنعة يقبلها عقله، وكشف وراء الفوضى غير المفهومة نظامًا وانسجامًا في الكون، وأدى ذلك إلى رفض القول بنزوات الآلهة وتعددها، وإلى الاتجاه نحو الوحدانية. وهنا وجد الإنسان نفسه على أعتاب التاريخ، وانبثقت الفلسفة في تفكيره للتعبير عن شعور

العقل بعد ارتقائه بالقدرة على تقديم إجابات وحلول مقنعة لمشاكل الوجود والفكر. وبعد أن كثرت المعلومات وتشعبت الموضوعات التي خاض فيها الفلاسفة، استقل كل موضوع بمجاله متخذًا صورة العلم، مثلما استقلت الفلسفة عن الدين الوثني، واتخذ كل فرع من فروع المعرفة البشرية اتجاهًا مميزًا له موضوعه ومنهجه وغايته. وعلى هذا النحو نشأت الفلسفة لتنظر إلى الكلي المعقول فيما وراء الجزئيات المحسوسة، ونشأت العلوم مع الفلسفة لتلبية حاجة الإنسان إلى الارتباط بالواقع، باعتباره موضوع النشاط الإنساني اليومي ومصادر كل ضروريات الحياة البشرية. وتبلورت من هذه المعارف وتطبيقاتها مقومات الحضارات التي شرع الإنسان في تشييدها على مراحل متعاقبة تتناسب ومستوى الاستيعاب المعرفي والتقني للعلوم في المرحلة التي تبلغها من تطورها[1].

ولا ينبغي أن يفهم مما ذكرناه أن الدين - كما يزعم أصحاب التفسير الاجتماعي - نشأ في باديء الأمر وثنيًا، وقام على المبالغة في تقديس الأشياء والأشخاص، ثم ارتقى شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى التصور الصحيح الذي يقوم على مبدأ التوحيد. ولكننا في حقيقة الأمر ننتصر لرأي الكثيرين من الباحثين المتخصصين في دراسة الأديان، بأن الدين الصحيح الذي أوحى الله به للمصطفين من الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الصراط المستقيم هو دين واحد في أصله وجوهره المبني على عقيدة التوحيد. قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [سورة الشورى: 13]، وقال جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء: 25]. كما أن الدين الصحيح أمر فطري في الإنسان، أودعه الله فيه منذ أن خلقه: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ﴾ [سورة الروم: 30]، ومعرفة الإنسان بخالقه معرفة فطرية ترجع إلى الميثاق أو العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في مرحلة «الذر»، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۛ ﴾ [سورة الأعراف: 172]. وعلى ذلك فإن الرسالات الإلهية التي أوحى الله

(1) د. عبد المجيد عبد الرحيم، **مدخل إلى الفلسفة بنظرة اجتماعية**، القاهرة 1976.
Ÿ د. يحيى هويدي، **مقدمة في الفلسفة العامة**، القاهرة 1974.
Ÿ د. أحمد فؤاد باشا، **فلسفة العلوم بنظرة إسلامية**، القاهرة 1984.

بها للأنبياء والمرسلين قد توالت لتصحيح الانحرافات التي وقعت من وقت لآخر في تاريخ البشرية، ولتطهير الدين من مظاهر الوثنية والانحراف عن الدين الصحيح التي كانت تطرأ عندما توشك رسالة أن تسلم الراية لغيرها[1].

وعندما جاءت الرسالات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، واجهت الفكر البشري بقضية لازمة لا جدال فيها، وهي أن ما جاء به الوحي في الكتب المنزلة هو القول الفصل في كل شؤون الكون والحياة، كل حسب حاجة البشر إليه عند تنزيله. ولكن هذا لا يمنع العقل من أن يفكر و يبحث لأنه سيتوصل في النهاية إلى أن الحق هو ما قاله الله. ولذلك نشأت مشكلة التوفيق بين العقل والنقل، أو بين التفكير والوحي، أو بين الفلسفة والدين، أو بين العلم والدين. وكان الدين الخاتم هو الإسلام الحنيف الذي جاء من عند الله ليقود حركة الإنسانية كلها، ويحقق الانسجام لجميع أنواع البلبلة التي وقعت فيها الديانات المحرفة والفلسفات المادية الوضعية الخابطة في الظلام[2].

وطبقًا للخصائص المميزة لكل من التفكير العلمي والتفكير الفلسفي، فإن النظرية الفلسفية القائمة على فروض ذاتية قوامها التأمل العقلي الخالص تختلف عن النظرية العلمية التي تؤكدها التجربة العملية. فقديمًا كانت النظريات الفلسفية عن أصل الكون متعددة ومتباينة، وكانت إحداها تقضي بأن العناصر الأساسية الموجودة في الكون أربعة هي: الماء والهواء والتراب والنار. والعلم لم يستطع حتى الآن أن يتوصل إلى نظرية محددة عن أصل الكون، لكنه أكد بما لا يحتمل الشك وجود ما يزيد على مائة عنصر يمكن رؤيتها بالعين أو تحضيرها في المعمل،

(1) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:
- سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق، القاهرة 1987.
- د. عبد الحليم محمود، **الإسلام والعقل**، دار المعارف 1985.
- د. عبد المقصود عبد الغني، **قضية الدين بين أنصاره وخصومه**، دراسة منشورة بحوليات كلية دار العلوم، ص ص 194-157، العدد العاشر 1983.

(2) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق، القاهرة 1987.
- د. يوسف القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985.
- د. علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، الجزء الأول، دار المعارف 1981.
- عبد الغني عبود، **الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة**، دار الفكر العربي 1981.

وأثبت أن الماء ليس عنصرًا ولكنه يتكون من عنصرين هما الأكسجين والهيدروجين، وأن الهواء والتراب يتكونان من عدة عناصر، وأن النار ظاهرة حرارية. وهكذا نرى أن النظرية الفلسفية القائمة على فروض ذاتية تنتقل إلى مجال العلم بمجرد التأكد من حقيقتها وفق منهج علمي سليم. ولهذا فإن الفلسفة قد تخلت عن كثير من موضوعاتها بعد أن تدخل العلم وتوصل بشأنها إلى نظريات وحقائق. ويمكن أن يقال نفس الشيء عن نظامي بطليموس وكوبرنيكوس للمجموعة الشمسية، ونظريتي أرسطو وابن الهيثم في الإبصار، وغيرها.

العلاقة بين العلم والفلسفة

إذا كانت الفلسفة قد نشأت في تفكير الإنسان باديء ذي بدء لتكون إحدى صور حبه الغامر للحكمة وكشف العلل البعيدة لظواهر الواقع، فإنها ظلت دائمًا، وحتى بعد استقلال باقي فروع المعرفة عنها، تحتل مكانة خاصة في التعبير عن درجة ارتقاء العقل البشري من خلال تعبيرها عن نمو العلاقة بالتأثير المتبادل بين الذات الإنسانية والموجودات الكونية. و إذا سلمنا بصحة هذا المعنى، فإنه يمكن القول بأن الفلسفة الإسلامية كانت تمثل قمة النشاط العقلي في عصر الحضارة الإسلامية الزاهرة التي شهد المنصفون من المؤرخين والمستشرقين بأثرها العظيم في دفع مسيرة الحضارة الإنسانية إلى عصر النهضة الأوروبية الحديثة، التي مهدت بدورها لقيام حضارة التكنولوجيا المعاصرة. وفي هذا أقوى دليل على ارتباط العلم بالفلسفة الإسلامية ارتباطًا وثيقًا متبادلًا.

والواقع أن علماء الحضارة الإسلامية وفلاسفتها كانوا يعتبرون العلوم العقلية جزءًا من الفلسفة، وقد عالجوا مسائل في الطبيعة كما عالجوا مسائل في الميتافيزيقا. وتزخر الدراسات الفلسفية بقضايا علمية كثيرة، كما تتعلق العلوم بمباديء ونظريات فلسفية عديدة. ويعتبر أبو بكر الرازي مثالًا لمجموعة العلماء الفلاسفة الذين يمارسون الطب في المقام الأول بالتشخيص والعلاج، معتمدين على المشاهدات والملاحظات، والفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية. وكان الرازي في طبه وفلسفته واثقًا من سلامة منهجه، لا يتردد في نقد من سبقوه، لأن الفلسفة في رأيه تأبى التسليم للأستاذ بغير حجة تقنع أو برهان يدفع[1]. كذلك كان الكندي عالمًا

(1) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، **رسائل فلسفية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1982.

فيلسوفًا، يرى - كما رأى أفلاطون من قبل - أن تعلم الرياضيات ضروري لتعلم الفلسفة[1]. وكان الحسن بن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبي مولعًا بالفلسفة، فدرس كتب أرسطو وشرحها وعلق عليها، وشارك الفارابي وابن ميمون في الحملة على بعض آراء الرازي الفلسفية. وكان ابن سينا من الفلاسفة العلماء الذين درسوا العلم الطبيعي على أنه جزء من المعرفة لا غنى عنه، واجتهدوا في طلب العلم التجريبي بأسلوب منطقي. ومن أوضح الأمثلة على ذلك كتاب «القانون» في الطب الذي يشار إليه على أنه نموذج رائد في فن التأليف العلمي من ناحية التبويب وجودة العرض ومنطقية الترتيب، وذلك بالمقارنة مع الكتب الحديثة.

من ناحية أخرى، يمكن أن نلاحظ أن الحركات العلمية في الإسلام سبقت الدراسات الفلسفية، فقد عنى خالد بن يزيد الأموي في عهد مبكر بالكيمياء والطب والنجوم، ودعا بعض المتخصصين لترجمة رسائل فيها عن اليونانية أو القبطية. والمترجمون أنفسهم رواد في البحث العلمي، فحنين بن اسحق طبيب وثابت بن قرة رياضياتي. وظهرت بعض الجماعات التي مزجت بين العلم والفلسفة، مثل إخوان الصفا الذين ظهروا في النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي، وكانت رسائلهم - وجملتها 51 رسالة - نموذجًا من الثقافة العامة السائدة، وتنقسم إلى أربعة أقسام: رياضيات وطبيعيات وعقليات وإلهيات، عدا الرسالة الحادية والخمسين التي تسمى «الجامعة»، وهي توضح هدفهم وتجمل ما ورد في الرسائل الأخرى[2].

ويمكن اعتبار هذه الجماعات أساسًا وأصلًا لنشأة الجمعيات العلمية التي عرفتها أوروبا بعد ذلك، وأصبح لها عظيم الأثر في تقدم العلوم ونشر الأبحاث العلمية[3].

وليس أدل على عمق العلاقة بين العلم والفلسفة الإسلامية من وجود كل الخصائص المميزة لما عرف حديثًا باسم «فلسفة العلوم» ومناهج البحث العلمي، ولكن من منظور إسلامي يؤكد منهجية الفكر العلمي الإسلامي وشموليته وعالميته، ويضفي عليه من سمات الإسلام ما يجعله

(1) ابن القفطي، **أخبار الحكماء**، ص 241، دار الآثار، بيروت.
(2) د. إبراهيم مدكور **في الفلسفة الإسلامية**، الجزء الثاني، دار المعارف، 1983.
(3) د. أحمد فؤاد باشا، **فلسفة العلوم بنظرة إسلامية**، القاهرة 1984.
- د. عبد الحليم منتصر، **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه**، القاهرة 1980.

صالحًا لكل زمان ومكان[1]. ذلك لأن التصورات والمذاهب والفلسفات الوضعية التي يضعها البشر لأنفسهم - في معزل عن هدى الله - تحتاج دائمًا إلى التطور في أصولها، والتحور في قواعدها، والانقلاب أحيانًا عليها كلها حين تضيق عن البشرية في حجمها المتطور وفي حاجاتها المتطورة... أما التصور الإسلامي - بربانيته - فهو يخالف في أصل تكوينه وفي خصائصه تلك الفلسفات الوضعية، لأن الذي وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور، ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات، ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها، في جميع أزمانها وأطوارها.. أصلًا ثابتًا تتطور هي في حدوده وترتقي، وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الإطار[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى حقيقة مهمة يغفلها كثير من علماء المناهج وفلاسفة العلم مؤداها أن المنهج العلمي السليم إسلامي المصدر والبنية والغاية، وأن إسلاميته حقيقة منطقية وضرورة واقعية[3]. ومن ثم فإنه لا يصح أن ينسب هذا المنهج الإسلامي في اكتشافه إلى عالم بعينه كما هو الحال بالنسبة لأرسطو وبيكون وستيوارت مل وغيرهم، بل يجب التركيز على مقدرة علماء الحضارة الإسلامية على استيعابه وتطبيقه كل في مجال اهتمامه، مثل جابر بن حيان في الكيمياء، والحسن ابن الهيثم في البصريات وأبي الريحان البيروني في الجيولوجيا وغيرهم. وفي هذه الحقيقة الهامة يكمن السبب في نجاح هذا المنهج الإسلامي ومواكبته لحركة التقدم العلمي التي حثت عليها آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وحررتها من القيود والأوهام المعوقة للكشف والإبداع قبل أن يقول بها بيكون ومل بعدة قرون. فقد دعت تعاليم الإسلام إلى

(1) د. أحمد فؤاد باشا، **فلسفة العلوم الطبيعية في التراث الإسلامي**. دراسة تحليلية مقارنة في المنهج العلمي، مجلة المسلم المعاصر، عدد 49، 1987.
وأيضًا، دراستنا «**نحو صياغة إسلامية لنظرية العلم والتقنية**»، مجلة **المسلم المعاصر**، عدد45، 1989.
- د. علي سامي النشار، المرجع السابق، ص 45-35.
- د. عبد الحليم الجندي، **القرآن والمنهج العلمي المعاصر**، دار المعارف 1984.
- سليمان الخطيب، **أسس مفهوم الحضارة في الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، 1986.
(2) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص 42-40.
- د. عبد الحليم منتصر، **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه**، القاهرة 1980.
(3) د. أحمد فؤاد باشا، **خصائص المنهج العلمي في التراث الإسلامي**، مجلة الأزهر، صفر 1409هـ - سبتمبر 1988م.

محاربة التنجيم والتنبؤ العشوائي والتعصب للعرف والعرق وحذرت من الاطمئنان إلى كل ما هو شائع أو موروث من آراء ونظريات[1].

والآن، ربما ينشأ تساؤل عن السبب الكامن وراء كل هذه المبررات للتدليل على وجود علاقة قوية بين العلم والفلسفة الإسلامية، رغم أن هذه العلاقة في نظر الكثيرين تعتبر بديهة منطقية لا تحتاج إلى برهان ولا يمكن إنكارها. لكننا نقول إن البديهيات - كما سبق أن ذكرنا - هي التي كثيرًا ما تتعرض من جانب الغير لمحاولات الطمس والتشويه، وتتعرض من جانب أصحابها لحالة من انقطاع الوعي بها والنسيان لغاياتها الأصلية. وليس أدل على ذلك من محاولات التشكيك في وجود «فلسفة إسلامية» أصلًا، سواء من قبل بعض المفكرين الإسلاميين أنفسهم أو من قبل بعض المستشرقين وعلماء التاريخ الغربيين[2].

الفلسفة الإسلامية والعلم المعاصر:

لا شك في أن العلم بتطبيقاته وتقنياته يؤدي دورًا أساسيًا في حياة الأفراد والمجتمعات، ويسهم إسهامًا مباشرًا في رسم تصورات الإنسان عن الكون والعالم الذي يعيش فيه، بل إنه أصبح سمة أساسية من سمات الثقافة المعاصرة. ومن يستقريء تاريخ العلم والحضارة يمكنه ملاحظة أثر التطور العلمي والتقني على مناهج التفكير وطبيعة التحول في مختلف ضروب

(1) عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية.

(2) لا يتسع المجال هنا لتفنيد أوجه الخلاف بين المفكرين والمؤرخين، إسلاميين وغير إسلاميين، حول تعريف العرب والحضارة العربية والفلسفة العربية وتعريف المسلمين والحضارة الإسلامية والفلسفة الإسلامية، وكذا خلافهم حول حقيقة الدور الذي أسهمت به حضارة الإسلام في تاريخ البشرية ولجوء البعض منهم إلى اعتبارات عنصرية أو خصومة دينية أو مذهبية قدر لها أن تجد سبيلها إلى ميدان العلم كما وجدته إلى ميدان السياسة، وأن تمتد بعض آثارها إلى عصرنا الحالي. انظر في ذلك على سبيل المثال: هـ. موسى، ميلاد العصور الوسطى، الترجمة العربية، عالم الكتب، القاهرة 1967، وأيضًا المراجع السابقة: سيد قطب، د. إبراهيم مدكور، د. علي سامي النشار، د. عبد الحليم منتصر، د. أحمد فؤاد باشا، سليمان الخطيب، د. عبد الغني عبود. يمكن الرجوع كذلك إلى: د. محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة 1985، وأيضًا:

- د. محسن عبد الحميد، **أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث**، دار الصحة 1984.
- الإمام عبد الحليم محمود، **التفكير الفلسفي في الإسلام**، دار المعارف، 1984.

النشاط الإنساني إذا ما قارن بين حدود عالم الإنسان منذ كان يقدح حجر الصوان لاستخراج الشرر إلى أن وصل إلى تفجير الطاقة من الذرة والنواة. وهل التقنية في حقيقتها إلا ذلك الجزء التطبيقي من العلم الذي يعمق ويوسع أدوات ووسائل التحصيل المعرفي، ومن ثم فإنها بهذا المعنى تصب مباشرة في نفس الإنسان ووعيه وتجربته، وتفرض ظلها على أنماط العلاقات والسلوك بين الأفراد والمجتمعات[1]. إن الأبحاث والدراسات المستقبلية تنبيء عن ثورة علمية مرتقبة يتهاوى تحت معاولها أساس الكثير من النظريات العلمية والمذاهب الفلسفية السائدة، ويطرأ بسببها تحول كبير على وعي الإنسان وتصوره لنفسه وللعالم اللذين كلما أوغل فيهما علمًا ومعرفة ازدادا أمامه عمقًا واتساعًا.

ولقد بلغت الصورة الراهنة للواقع العلمي والتقني درجة من التعقيد يستحيل معها على باحث واحد تحليلها في دراسة واحدة. ذلك لأنها في أحد جوانبها مثلًا تمتد من أصغر الجسيمات الأولية في عالم الذرة ونواتها إلى أكبر المجرات الكونية في عالم الفضاء المتناهي. ويكاد يمتزج البحث في هذه المجالات بميادين أخرى على نفس المستوى من الخطورة والأهمية تشمل تقنيات الليزر والحاسب الآلي والذكاء الاصطناعي والهندسة الوراثية والاتصالات وسباق التسلح في الميادين البيولوجية والكيميائية والنووية وغيرها. وتدلنا الأبحاث الجارية حاليًا في مختلف فروع العلم على أننا نعيش مرحلة جديدة في التفكير العلمي والتقني المرتبط بمفاهيم ميتافيزيقية أحيانًا مثل التحكم في عمر الأجسام المتحركة عن طريق سرعاتها، والحديث عن الأبعاد الخفية للزمان والمكان، وفكرة الخلق من العدم، وحقيقة أصل الكون وتمدده، وغيرها[2]. ويكفي أن نشير إلى ما شهدته أبحاث الفضاء الكوني من تطور كبير أدى بأصحاب النزعة العلمية والتقنية المتطرفة - على الصعيد الفكري - أن يشرعوا في الترغيب لما يشبه الاعتقاد بأن الفضاء الخارجي هو الموطن الطبيعي للبشر.

وإذا كان سكان الكرة الأرضية ينقسمون الآن إلى شمال قوي متقدم وجنوب ضعيف

(1) د. جون ديكنسون، **العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث**، عالم المعرفة، (112) الكويت 1987.

- د. معن زيادة، **معالم على طريق تحديث الفكر العربي**، عالم المعرفة (115)، الكويت 1987.

(2) مصطفى طيبة، **الثورة العلمية والتكنولوجية والعالم العربي**، دار المستقبل العربي، القاهرة 1983.

- د. أحمد فؤاد باشا، **نحو صياغة إسلامية لنظرية العلم والتقنية**، المسلم المعاصر ع 54 مارس 1989.

متخلـف، فـإن الإدراك الواعي لطبيعة التصورات التي تحدث في كل ميادين العلم المعاصر من شـأنه أن يسـاعد على تقييم موضوعي لتلك الفجوة الواسـعة بين سكان الكوكب الواحد. كما أن التوصيـف الأمين لهذا الواقع العلمي والتقـني يعتبر - في رأينا - مقدمة ضرورية للتفكير في الخروج من مستنقع التخلف، والإسهام في إعداد عقليات علمية قادرة على المشاركة في ميادين الابتكار والإبداع. وبطبيعة الحال سـوف تختلف طرائق التناول باختلاف الوجهات الفلسفية المطروحة في ساحة الفكر المعاصر على تعددها وتباينها، حيث يطمع كل فريق إلى أن يجعل من تصوره أساسًـا لإيمان اجتماعي جديد يكون بمثابة دين إنساني يهدي إلى الحقيقة شاملة كاملة. وهنا تبرز من جديد حاجة البشرية الماسـة إلى المنهج الإسلامي الذي ينقذها من متاهة الحيرة بين نظريات الحقيقة ومشـكلات المعرفة كما تراها الفلسـفات الوضعية المتصارعة. فالحقيقة التـي ينبغي معرفتها ليسـت هي ما يضعه الفلاسـفة اتفاقًا أو اختلافًا، ولكنهـا الحقيقة البناءة المرتبطة بالعلم وبالواقع، وهي أيضًا الحقيقة الهادفة إلى اليقين المرتبط بالصدق وبالعقيدة[1].

ويكـون التحدي الحقيقي الذي يواجهه الفكر الإسـلامي في هـذا العصر هو قدرته على تهيئة العقول لاسـتيعاب كل ما تسـفر عنه تطورات العلوم وتقنياتها، وذلك من خلال صياغة جديـدة لفلسـفتنا الإسـلامية تأخذ في اعتبارهـا لغة العلم وتحدياته، وتسـهم في بنـاء الحضارة المعاصرة بنصيب يتناسب مع مجد الأمة الإسلامية ومكانتها المرموقة في تاريخ الحضارة. عندئذٍ فقط يبطل زعم المذاهب العنصرية التي يرى أصحابها أن المسلمين يعجزون عن إنتاج فلسفة خاصة، لأن الفلسـفة نتاج متميز يتطلب صفات عقلية مغروسـة جنسيًا وعرقيًا، ولا يتمتع بها غير الآريين وحدهم.

مـن ناحيـة أخرى، يزيد من أهمية الدعوة إلى فلسـفة إسـلامية معـاصرة أنها تحتل مكان

(1) هنتر ميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة د. فؤاد زكريا، القاهرة 1975.
- د. يحيى هويدي، المرجع السابق.
- د. أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية. انظر أيضًا دراستنا حول «الإسلام وفلسفة العلم المعاصر» في كتاب «الثقافة الإسلامية» (بالاشتراك)، منشورات جامعة صنعاء 1986.
يمكن كذلك الوقوف على وجهة نظر تفسيرية لأهمية العلوم الطبيعية في الفكر الفلسفي والأيديولوجي عامة في: محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، تكوين العقل العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1984.

الصدارة من العلوم المؤهلة لسدِّ الفجوة الواسعة بين العلم والإنسان، ويعوَّل عليها كثيرًا دون غيرها في درء الأخطار التي تهدد وحدة الثقافة النظرية والعملية وتكامل المعرفة والفكر الإنسانيين. ذلك أن الواقع الثقافي على مستوى العالم أجمع بصورة عامة، وفي عالمنا الإسلامي بصورة خاصة، يعاني من أزمة الفصل التام تقريبًا بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، أو بين الثقافة العلمية والثقافة الإنسانية، وهو ما يسميه البعض بأزمة «الثقافتين»[1]. فالمشتغلون بالعلم لا يقرأون الإنسانيات ولا يفهمونها، والمتخصصون في العلوم الإنسانية يتحاشون الاقتراب من عالم الرياضيات الفسيح، ولا يتابعون تطور العلم ومفاهيمه. لكن تطور الحياة المعاصرة وتشابك جميع عناصرها يؤكدان على ضرورة السعي إلى إقامة الجسور بين مختلف فروع المعرفة البشرية مهما تباينت مجالات اهتمامها الجزئية.

والآن، ربما يكون مفيدًا في هذا السياق أن نسوق بعض الأمثلة التوضيحية من الأبحاث العلمية المعاصرة التي تنبئ نتائجها بظهور تصدع ملحوظ في بعض النظريات العلمية الشهيرة، أو في الأنظمة الفلسفية القائمة عليها، وسوف نعرض فيما يلي لنماذج منتقاة ذات دلالة خاصة في الواقع المعاصر لتحديات الفكر العلمي والفكر الفلسفي على حد سواء.

المثال الأول:

نستخلصه من الأبحاث التي يجريها علماء الفيزياء بمختبرات المركز الأوروبي للبحوث النووية «سيرن» CERN باستخدام معجلات الجسيمات الأولية. فقد أثبتت التجارب أن الجسيمات الأولية إذا ما اكتسبت سرعات عالية جدًا فإن التصادم الناشيء يكون ذا طاقة فائقة تسمح بحدوث تفاعلات بين الجسيمات الأولية، وينتج عن ذلك أعداد من الجسيمات غير المستقرة التي تبقى بعد تولدها لفترة زمنية محددة في حيز الوجود، ثم لا تلبث أن تندثر بالتحلل إلى جسيمات أخرى. وقد أطلق على أحد هذه الجسيمات اسم «الميون» Muon، وهي بالطبع جسيمات قصيرة العمر، ولوحظ بالتجربة أن فترة دوامها التي تسبق تحللها إلى إلكترونات ونيوترونات تعتمد على سرعة تحركها. فالميون الأكثر سرعة يعيش زمنًا أطول قبل أن يتلاشى،

(1) أول من أطلق هذه التسمية هو المفكر البريطاني المعاصر «سنو» C. Snow الذي رأى أن المثقفين في أي مجتمع منقسمون لافتقارهم إلى لغة مشتركة، وقسمهم إلى مجموعتين لكل منهما ثقافة: العلماء والأدباء أو الإنسانيون. انظر أيضًا: د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص 313، الطبعة الثالثة، عالم المعرفة، الكويت 1988.

والعكس بالعكس. وهذه الحقيقة المؤكدة عمليًا تتفق مع النظرية النسبية لأينشتين، وإن كان يصعب على العقل تصديقها[1]. إنها نوع جديد من الميتافيزيقا الفيزيائية التي لم تتوقعها أي من الفلسفات الوضعية، حتى وإن كان العلم منهجها. ولنا أن نتخيل مبلغ الحيرة التي تنتاب هذه الفلسفات عندما يطلب منها أن تستخدم القياس أو المماثلة للربط بين هذا الأمر وبين عمر الإنسان مثلًا. إنه بلا شك أحد مظاهر عجز الفلاسفة عن بناء أنساق سليمة على أساس الأفكار الجديدة لأينشتين ومن تلاه من الفيزيائيين والرياضياتين، على الرغم من أنهم - أي الفلاسفة - يعتبرون موضوع الزمان والمكان في صميم اهتماماتهم[2].

المثال الثاني:

يتعلق بقضية توحيد القوى الطبيعية الذي كان أحد أحلام أينشتين أثناء عمله في نطاق النظرية النسبية العامة. فمن المعروف أن هناك أربع قوى تعمل داخل نواة الذرة، هي: قوة الجاذبية التي تعمل بين الأجسام المادية، والقوة الكهرومغناطيسية التي تعمل بين الجسيمات المشحونة، والقوة النووية الشديدة التي تعمل على تماسك نواة الذرة، والقوة النووية الضعيفة التي أحد مظاهرها انبعاث أشعة بيتا من النواة. وهناك بالطبع اختلافات جوهرية بين هذه القوى من حيث شدة تأثيرها ضمن مدى فعلها[3].

وقد عكف العلماء الثلاثة عبد السلام - وينبرج - جلاشو على دراسة هذه القضية ونجحوا جزئيًا في توحيد القوتين الكهربية والنووية الضعيفة[4]. ويواصل العلماء الآن بحوثهم لاستكمال عملية التوحيد بين القوى الأربع، فهم يدرسون احتمال أن تكون أبعاد حيز الفضاء والزمن أحد عشر وليست أربعة فقط كما يقول أينشتين، ويأملون في هذا النطاق أن يتم توحيد القوة الكهربية الضعيفة مع القوتين الأساسيتين الأخريين وهما: قوة الجاذبية والقوة

(1) يمكن معرفة المزيد عن فروض نظرية النسبية لأينشتين وتطبيقها لحساب فترة دوام الجسيمات الأولية المتحركة بسرعات عالية بالرجوع إلى مؤلفنا: فلسفة العلوم بنظرة إسلامية ص 155-150، ص 173.

(2) محمد عبد السلام، مؤتمر «**الإسلام والغرب**»، دار اليونسكو بباريس، 27 أبريل 1984.

(3) د. هشام غصيب، **جولات في الفكر العلمي**، دار الفرقان، عمان 1985.

(4) كانت هذه النتيجة الهامة واحدة من الكشوف العلمية المميزة التي أهلت العلماء الثلاثة للحصول على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1979.

النووية الشديدة. وحسب تفكيرهم يكون الانحناء الهندسي لأبعاد أينشتين الأربعة هو المحدد لحجم الكون وفترة بقائه، أما الانحناء الهندسي للأبعاد السبعة المتبقية فيرتبط بظهور الشحنات الكهربية والشحنات الناقلة للقوة النووية.

وهكذا نرى مؤشرات تصدع نظرية الأبعاد الأربعة ومحاولات ترميم بنائها بأحد عشر ركنًا (أوْ بُعدًا). لكن ما مدى صحة هذه الافتراضات الجديدة؟ وما سر هذا العدد من الأبعاد الإضافية؟ وهل هناك احتمال لأن يزيد في المستقبل أم أن الفكرة سوف تنهار من أساسها؟. وبينما يحاول العلماء الآن وضع إجابات وحلول لهذه المشكلات طلع عليهم بحث جديد أحدث ضجة بين جمهور العلماء عمومًا، والفيزيائيين منهم على وجه الخصوص. لكن البحث الجديد لم يضف هذه المرة بُعدًا جديدًا لقياس حيز الزمان والمكان، بل أضاف قوة أساسية خامسة إلى القوى الأربع الأصلية التي تعارفنا عليها منذ زمن طويل. وقيل عن هذه القوة الجديدة إنها ذات طبيعة تنافرية ضعيفة، و إن مداها الفعال هو بضع مئات من الأمتار، و إن شدتها لا تتوقف على كتلة الجسمين المتفاعلين أو شحنتهما، و إنما على خصيصة تتغير بتغير التركيب الكيميائي وهو عدد «الباريونات» Baryons الكلي (أي البروتونات والنيوترونات) في وحدة الكتلة[1]. و إذا كان هناك من يصف هذه النظرية بأنها عمل يثير الإعجاب، فإن هناك أيضًا من ينتظر الدليل القاطع على صحتها بالتجربة والبرهان. ولكنها بكل تأكيد عملت على زعزعة أفكار كان يُظن أنها ثابتة حتى عهد قريب[2].

المثال الثالث:

نسوقه من علم الكون Cosmology لنوضح كيف أن العلوم المعاصرة تتناول من القضايا بالبحث النظري والعملي ما كان يومًا قد يعتبر من خرافات الميتافيزيقا. فقد تزايد الآن عدد الباحثين في الفيزياء الفلكية الذين يعتقدون بأن كثافة المادة والطاقة في الكون هي على صورة معينة بحيث إن كتلة الكون في مجموعها لا بد وأن تساوي صفرًا على وجه التحديد. وكتلة الكون تعتبر من المعطيات الفيزيائية التي يمكن تحديدها عن طريق القياس العلمي التجريبي،

(1) مجلة العلوم الأمريكية، الترجمة العربية المجلد الخامس، ع2، أغسطس 1988.

(2) مجلة العلوم الأمريكية، الترجمة العربية المجلد الخامس، ع2، أغسطس 1988 حيث يجد القاريء مقالًا علميًا مطولًا عن «الأبعاد الخفية للزمكان (نحت من كلمتي زمان - مكان).

فإذا كان مقدارها يساوي الصفر فعلًا، فإن الكون عندئذٍ يشارك حالة الفراغ التام في خاصية «انعدام الكتلة». وقد ظهرت حديثًا نظرية جريئة تنطلق من هذه الفرضيات لتعتبر الكون على صورة تقلبات كمية Quantum Fluctuations حول الفراغ، وهي حالة من اللاشيئية في الزمان والمكان خلقت من العدم. ومرة أخرى نحتكم إلى التجربة في إحدى مسائل ما وراء الطبيعة. فعن طريق قياس كثافة المادة في الفراغ يمكن لنا أن نعرف مدى صحة هذه النظرية، علمًا بأننا نعتبر حاليًا أن كثافة مادة الكون تساوي مقدارًا ثابتًا متناهيًا في الصغر (10 - 31 جم/سم^3)[1].

المثال الرابع:

يتعرض من زاوية أخرى لقضية أصل الكون التي تقضي بأن المجرات تُدفع متباعدة عن بعضها في جميع الاتجاهات، محمولة بنسيج «زمكاني» يكبر بانتظام. وبات واضحًا أن الكون يتمدد. ومنذ عهد قريب اتضح أن المجرات ليست ساكنة بالنسبة لهذا النسيج المنتشر، فهي تقوم بحركات خاصة تساعدنا في النفاذ إلى بنية الكون ومعرفة مدى التقلبات في كثافة مادته. وما تمّت معرفته عن هذه الحركات يوحي بأن المادة تتكتل مع بعضها بمقاييس كبيرة لا يمكن تصورها، فتعطينا صورة عن الأحداث التي جرت في بواكير نشوء الكون، وقد تجيب هذه الحركات أيضًا عن سؤال حول النهاية الأخرى للزمن: فهل سيستمر تمدد الكون؟ أم أن قوة الجاذبية سوف توقف هذا التمدد في نهاية المطاف، أو حتى تعكسه بحيث ينهار الكون ثانية ويعود إلى كثافته الأولية؟ لهذا ينهمك الباحثون الآن في رسم نموذج للجريان الكوني باستخدام أحدث التقنيات، وقد ظهر لهم بالفعل من النتائج والبيانات ما يجعلهم يتعاملون مع النظريات السائدة حاليًا بحذر شديد[2].

المثال الخامس:

نقدمه كنموذج للكثير من التجارب العملية التي تجري في مختلف فروع العلم بأحدث الوسائل التقنية، وبعض هذه التجارب تحتاج عدة سنوات من المتابعة والمراقبة لكي يظهر تأثير

(1) انظر ما كتبناه عن «تطور نظريات نشوء الكون» في كتابنا فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، وأيضًا فريد هوبل، مشارف علم الفلك، ترجمة إسماعيل حقي، القاهرة 1963.

(2) راجع مقالًا مفيدًا: «الجريان الواسع النطاق للمجرات»، مجلة العلونم، الكويت، أبريل 1988.

نتائجهـا على كثير من النظريات والمفاهيم العلمية السـائدة. ومثالنا هذا يتعلق بتجربة قياس بُعـد القمـر عن الأرض والمعروفة باسـم LURE[1]. بـدأ تنفيذ هذه التجربـة في 20 يوليو عام 1969 مع أولى خطوات الإنسـان على القمر في إحدى رحلات سـفينة الفضاء أبّوللو 11، وذلك عندمـا قام رواد الفضاء على هذه السـفينة بوضـع جهاز يحوي مائة مـرآة صغيرة لكي تعكس نبضات أشـعة الليـزر الموجهة إليها من محطـات أرضية في أماكن مختلفة فـوق قارات الأرض. ويقوم الفريق العلمي القائم على هذه التجربة بمتابعة تسـجيل ودراسـة بعد القمر عن الأرض على مدى عدة سنوات لمعرفة مدى تغير هذه المسافة بمرور السنين. وقد بدأت التحاليل العلمية لهـذه التجربة تؤتي بالفعل ثمارها عندما أُعلن قريبًا عن نتيجة هامة مؤداها أن القمر يبعد عن الأرض بمعدل 3.5 سـنتيمتر سنويًا. ويوالي الباحثون جهودهم لتحسين ظروف القياس بصورة مسـتمرة، إيمانًا منهم بأهمية النتائج التي يحصلون عليها في تفسـير الكثير من المسـائل المتعلقة بحركـة كل من الأرض والقمر والتوزيع الكتـلي لمادتيهما، وبنظريات الجاذبية وأصل الكون وتزحزح القارات، وغيرها[2].

وهكـذا يتضح مـن الأمثلة التـي ذكرناها مدى التشـابه بـين موضوعات العلـم المعاصر وقضايـا مـا وراء الطبيعة في الفلسـفات الوضعية، إلا أن هذه الموضوعات لـن تلبث في حالتها الصورية طويلًا حتى يصل بها المنهج العلمي إلى مرحلة التحقيق التجريبي الذي يؤيد صحتها

(1) هذه هي الحروف الأولى من الاسم الأجنبي لتجربة تحديد بعد القمر عن الأرض باستخدام أشعة الليزر، أو Lunar Laser Ranging Experiment، التي يشرف عليها عالم الفيزياء الشهير «كارول ألّي» .Carrollo Alley من جامعة ميريلاند.

(2) تجدر الإشارة هنا إلى أننا اكتفينا بذكر بعض الأمثلة التوضيحية من العلوم الفيزيائية التي يُعوَّل عليها كثيرًا في استخلاص الأمثلة والدلائل عند الحديث عن النموذج المثالي للعلم الطبيعي، وذلك لما تمثله الفيزياء بفروعها المختلفة باعتبارها أعلى مراحل تطور العلم من حيث المنهج والنظرية. ويزخر الواقع العلمي المعاصر بالعديد من الأمثلة المشابهة ذات الأثر والخطورة في ميادين أبحاث الفضاء والهندسة الوراثية وزراعة الأنسجة وعلوم الحاسب الآلي والاتصالات والمستقبليات وغيرها. ونهيب بكل المهتمين والمعنيين بقضايا العلم الطبيعي وتقنيته وفلسفته أن يجتهدوا في البحث عن آخر ما وصل إليه العلم في مجالات تخصصهم، ويعرضونه في قالب مبسط بقدر الإمكان مع الحفاظ على المضمون العلمي. فإن هذا من شأنه أن يسهم بطريقة غير مباشرة في التجديد المستمر للثقافة العلمية العربية وتنقيتها من الأمثلة القديمة المهترئة التي لا يمل البعض من الإصرار على تكرارها والدوران حول معانيها التي ربما تكون قد تبدلت أو عُدِّلت وهم لا يشعرون.

أو ينسفها من أساسها نسفًا. فكيف يا ترى ستواجه فلسفتنا الإسلامية كل هذه التغيرات وغيرها مما لا يخطر الآن على قلب بشر؟ وكيف سيتسنى لها الإسهام في سدِّ الفجوة الواسعة بين العلم والإنسان، وفي درء الأخطار التي تهدد وحدة المعرفة البشرية وتكاملها؟ وكيف تستطيع الخروج بالمثقفين من أزمة الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، أو أزمة «الثقافتين»؟ كيف ستواجه كل هذه التحديات بدون نظرية إسلامية واضحة وشاملة في فلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة وتقنياتها...؟

نظرية العلم الإسلامية

وصلنا الآن إلى طرح ما نعتقد بأنه يمثل نقطة البدء الحقيقية والمنطقية في إصلاح الخلل الجسيم الذي أصاب الأمة الإسلامية في فكرها وفلسفتها، ثم أودى بها في غياهب التخلف والتبعية. ذلك أن بلورة نظرية إسلامية في العلم والتقنية ضرورة معرفية وحضارية يتطلبها بناء النسق الفكري الجديد لفلسفة إسلامية معاصرة يستعين بها المسلمون على تغيير واقعهم وتطويره بمعايير الإسلام وأدواته في التغيير والتطوير، وينظرون من خلالها النظرة الإسلامية لقضايا الكون والحياة، ويواجهون بها كل ضروب التحدي الموروث أو الوافد، لكن إنجاز هذه المهمة الكبرى ليس بالأمر اليسير، فهو يحتاج إلى إسهام وإبداع كل المهتمين بقضايا الفكر الإسلامي ومشروع النهضة الإسلامية المنشودة، كل بحسب تخصصه وعلى قدر طاقته، وسوف ينتج من التلاقح المستمر بين نتاجات الباحثين ودراساتهم المتأنية أن يتبلور الفكر الإصلاحي السليم. ويستدعي إنجاز هذه المهمة أن يتناول الباحثون موضوعات عديدة متعلقة بالعلم وفلسفته وتقنيته، نوجز أهم معالمها في النقاط التالية:

1- الاستهداء بالمصادر الإسلامية من القرآن والسنة والشريعة لتحديد معاني محددة لمصطلحات الفكر العلمي مثل «العلم» و«العالِم» و«التقنية» و«العلة» و«القانون» و«المنهج» و«الفلسفة» و«النظرية» و«الحقيقة»، وغيرها، على أساس أن جميع الظواهر التي يتناولها الإنسان بالبحث هي محتوى هذا الكون الذي خلقه الله تعالى على أعلى درجة من الترتيب والنظام والجمال، وأن الإسلام قد حرر الإنسان من كل معوقات الإبداع، وأطلق تفكيره لمعرفة الكون والحياة.

2- القيام بمسح شامل لأكبر عدد ممكن من كتب التراث العلمي للحضارة الإسلامية بهدف الوقـوف على ما به من نظريات وآراء علمية ذات قيمة تاريخية ومنهجية للعلم، وأيضًا لتنقية هذا التراث من مزاعم بعض المستشرقين والمؤرخين.

3- اسـتقصاء وتحليل جهود علماء المسـلمين واتجاهاتهم العلمية والفلسـفية، وتصنيف العلوم اسـتنادًا إلى المفهوم الإسلامي للعلم القائم على وحدة العقل الإنساني وتضافر جميع ملكاته مـن أجْل تحصيل المعارف وتطويرها والاسـتفادة منها. ويؤمـل، من خلال وضع توصيف هذه العلوم في دراسة تحليلية مقارنة مع تصانيف العلماء السابقين من اليونان والإسكندرية وتصنيف المحدثين من أمثال فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت وأوجست كونت وأصحاب دائرة المعارف وغيرهم، أن يؤدي إلى تصور إسلامي لتصنيف العلوم المعاصرة.

ويمكن الاسـتعانة بالحاسب الآلي وتطوير وسـائله لخدمة أغراض المسح الشامل لكتـب التراث وإحصاء النصوص الإسـلامية وتصنيفها. وبذلك يسـهل التعامل معها ويرجى الانتفاع الكامل بها.

4- توصيـف الواقع العلمي المعاصر وفهم لغته ومصطلحاته بما يحقق الاسـتيعاب الكامل لهـذا الواقع. ويجب ألا يغيب عن الذهن دائمًا أن عدم اسـتيعاب الواقع في حينه يؤدي إلى اسـتمرار الانغماس في مستنقع التخلف والدوران في فلك التبعية، ومن ثم يؤدي إلى غياب المقدرة على استشراف آفاق المستقبل والإعداد لمواجهته.

5- معالجة فلسـفة العلوم المعاصرة من وجهة النظر الإسـلامية وبمنظور شامل يحدد للعلم مكانته الخاصة بين سائر الفاعليات الإنسانية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن فلسفة العلم لم تعد ذلك النطاق الضيق الذي يقتصر على تعريف العلم والعالِم وتحليل الخواص المميزة للغة العلم الموضوعية ومناهج البحث العلمي، ولكن مجالات فلسـفة العلم قد اتسعت لتشـمل كل جوانبه الأبسـتمولوجية والأنطولوجية والأكسـيولوجية والسوسيولوجية والسـيكولوجية والتاريخية، وغيرها. ويجب التركيز على إبراز الجانب القيمي لكل من العلم والتقنية ومدى انعكاس ذلك على ازدهار حضارة المسـلمين، مع المقارنة التحليلية والمتعمقة بآثار هذا الجانب القيمي في حضارة العصر المادية.

6- صياغة المنهج العلمي الإسلامي كعلاج لإشكاليات مختلف مناهج البحث العلمي الوضعية، مع بيان شمولية هذا المنهج الإسلامي وعدم مقدرة المحدثين على استيعاب كل جوانبه والاستفادة من كل مقوماته.

7- الانطلاق في جميع عمليات التفكير العلمي من مسلمتي التوحيد الإسلامي والنظام الكوني وربطهما باطراد الظواهر الطبيعية وعلّيتها، وبيان أثر ذلك في تحقيق الاطمئنان والثقة اللازمين لمواصلة البحث والتأمل واستمرار تحصيل المعارف الجديدة. على أن تكون الثوابت والمتغيرات الإسلامية هي الإطار الذي يحكم كل مناهج النظر في قضايا الوجود والفكر، ويحدد ضوابط التطبيق الإنساني لتلك المناهج بما يحقق إرادة الله في إعمار الحياة على الأرض.

تلك هي أهم النقاط التي نتصور أنها تمثل مدخلًا لتبادل الرأي والحوار البناء حول أسس تكوين العقلية الإسلامية المعاصرة وترشيدها من خلال بلورة نظرية عامة للعلم والتقنية في إطار من التصور الإسلامي المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وليس هناك من شك في أن مثل هذه النظرية ستكون بمثابة «اللبنة الأساسية» التي يقوم عليها بناء الفكر الفلسفي المعاصر، بل وبناء الصرح الحضاري الإسلامي الكامل[1].

(1) سوف نتناول هذه النظرية من مختلف جوانبها في دراسات قادمة بإذن الله، ونهيب بغيرنا أن يعاون في إبرازها وتعميق معالجتها. انظر في ذلك مؤلفاتنا التي سبقت الإشارة إليها، وقائمة مؤلفاتنا الحديثة في الموقع الإلكتروني: www.afbasha.com.